الشعر والسرد
فاعلية الشعر في أخبار الأغاني

د. محمود فرغلي
جامعة المنيا- مصر

تحاول هذه الدراسة قراءة الشعر المبثوث في بعض أخبار الأغاني[1]، انطلاقا من النظر إلى هذا السفر الأساسي من أسفار التراث العربي باعتباره كتابا سرديا من الدرجة الأولى وقوامه الأساسي فن من فنون السرد التراثية وهو الخبر.

ويحتل الشعر في تراثنا العربي بؤرة رئيسية فيه، فهو بوصفه ديوان العرب يحفظ أيامهم وأخبارهم وبطولاتهم، لذا نجده متغلغلا في مختلف فنون النثر، ومؤديا وظائف فنية وغير فنية عديدة، ومناط الاختلاف في تلك الوظائف يرتبط بطبيعة كل نوع نثري، من ناحية واختلاف طبيعة الشعر والنثر من لذلك اعتمد الأخباريون عليه كمصدر تاريخي يؤرخون به للأحداث والمعارك والأخبار، فكما اعتمد عليه اللغويون في جمع المادة اللغوية، اعتمد عليه الإخباريون في جمع الأخبار، وكثيرا ما اتخذوا مما يرد بها من أسماء لأشخاص أو أماكن أو أحداث مطية لبناء الخبر عن طريق تسريد ذلك الشعروتحويله من المنظوم إلى المسرود. فالخبر " في قرارته زائل مهما يعظم، مثله كمثل الفرد نفسه لا يبقى، الباقي هو الكلام الذي يسمو على الخبر أو يجعل الخبر من بعض النواحي

عرضا، وكل عرض إلى زوال، والكاتب يغالب فكرة الخبر بواسطة أساليب متعددة من بينها إدخال الشعر والأمثال والغريب في بوتقة واحدة "(1)

يضاف إلى ذلك الطبيعة الشفاهية للشعر العربي، والتي " جعلت منه بناء شفويا تتشكل من حوله بنيات صغرى نسيجها الحكايات والتواريخ، ومع التحول من الشفاهة إلى الكتابة تحولت البنيات الصغرى المحيطة بالشعر إلى بنيات مستقلة يمكن قراءتها دون ضرورة استحضار تأكيدي للبؤرة ،فتشكلت بنية سردية مهمة "[2]، وهو ما أكده عبد الحميد إبراهيم في كتابه عن قصص الحب العربية، حيث أشار إلى أنه يظهر "في بعض الأشعار بذور حكايات وقصص كأن يذكر الشاعر ليلة التقى فيها بحبيبته، وما لاقى من الصعاب، وحين انتشرت هذه البذور وتلك الإشارات إلى الناس أراد الناس أن يفسروها ويشرحوها، فاختلقوا حولها القصص والحكايات التي تفسر الأبيات وتصل بعضها ببعض"[3] ولعل ذلك يفسر لنا تنوع الأخبار حول نص شعري واحد، حيث تتنوع الأخبار بتنوع التفسيرات من قبل الرواة، ومثال لذلك في أخبار ابن سيحان نجد أن بيتا واحدا من الشعر سمح بتعدد الأخبار حوله بتعدد تفسيرات الرواة له، وهذا البيت هو قوله

لا تَبْعدَنَّ إداوةٌ مطروحةٌ ❖❖❖ كانتْ حديثا للشرابِ العاتِقِ

وهو ما نراه أيضا في قول السليك بن السلكة:

من الخَفِرات لم تفضَح أباها ❖❖❖ ولم تلحق بأخوتها شَنَارا

وما يتبع ذلك من تنوع في الأحداث والشخصيات. بل يذهب فاروق خورشيد إلى أن الأشعار التي دارت حول شخصية مثل "تبّع "لو جمعت في إطار واحد كما وردت بكتاب عبيد بن شريّة لأكملت ملحمة طويلة لن تقل عن 694 بيتا بصرف النظر عن قضية الصحة والوضع، فالشعر بالنسبة له أصل من أصول الرواية العربية في كتابة عن الرواية العربية عصر التجميع، ومصدر من المصادر

الدرامية التي أنبتت الجذور الأولى للمسرح العربي في كتابه (الجذور الشعبية للمسر حالعربي)[4]

ونخلص من ذلك إلى أن الشعر في كثير من الأحيان يمثل بؤرة أو نواة أساسية تتحلق من حولها بنى سردية مختلفة تتراوح اتساعا ما بين الخبر القصير والقصة والسيرة المطولة، وهو ما نعبر عنه بالشكل التالي:

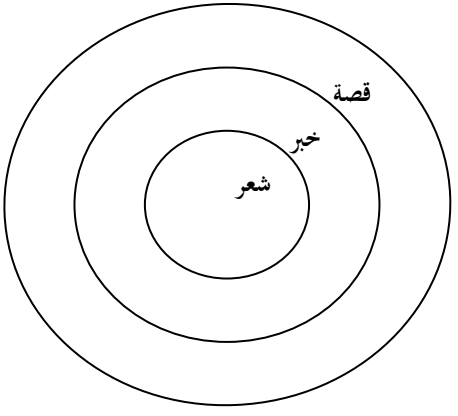

وهذا التصور لا ينطبق على جميع الأخبار، فقد نجد بعض الأشعار مقحمة على الخبر إقحاما حيث "يبتدع الرواة الخبر ويبحثون له عن الشعر الملائم، ويعثرون على ذلك عادة في الأشعار التي لا تخصيص فيها، وإنما مدارها على تصوير العواطف والقيم الاجتماعية[5]، لذا تعتبر العلاقة بين الشعر والخبر "علاقة مخصوصة، معقدة، فيها شيء من التواطؤ وشيء من الصراع"[6]، وتأخذ العلاقة بينهما صورتين أساسيتين: الخبر خادما للشعر، والخبر مستخدما للشعر، فالخبر كخادم كان "ينحصر دوره في تقديم الشعر إلى القراء، وإيضاح مناسبة قوله، وشرح ما يتضمنه من إحالات على أحداث تاريخية أو شخصيات .....(ثم) اشتد عوده حتى انقلبت علاقته بالشعر، فغدا مستخدما له يحوّل مجازه حقيقة وإيحاءه تصريحا، ويوظفه لخدمة أفكار معينة لم تخطر

ببال الشاعر حين نظم أبياته.... فأصبح الشعر ألعوبة في يد الخبر يكاد يكون تابعا من توابعه "[7].

ولدراسة العلاقة الشعر بالخبر، يحاول الباحث الاستفادة من مفهوم الوظيفة الذي قدمه رولان بارت بنوعيه (النوى، والوسائط)، للكشف عن الجانب الوظيفي الذي يضطلع به الشعر في الأخبار بأنواعها المختلفة، حيث يلاحظ أن الدور الوظيفي للشعر يتفاوت بتفاوت حظ الخبر من السرد، فالأخبار المجردة من مثل أخبار الأنساب والمفاضلات والتقييم والوصف المجرد والأحكام النقدية، يشكل الشعرفيها – إن وجد – بؤرة الخبر، والهدف الأساسي الذي يسعى الراوى بكل جهده لنقله دون إشارة أو ربط له بأي حدث يتعلق به، بل قد يكتفي بقوله : قال فلان، ثم يذكر الأبيات .

هذا عن الأخبار المجردة، أما الأخبار السردية البسيطة فيبرز دور الشعر باحتلاله مركز الخبر ومركز التأثير فيه فهو الذي يحدث التحولات المختلفة في الأحداث ومواقف الشخصيات، كما يشغل وظيفة بعينها من الوظائف (أعمال الشخصيات) التي تتكون منها بنية الخبر، وبعبارة أخرى يشكل الشعر في الخبر وحدة سردية أو دلالية تتمثل فيها وظيفة من وظائف التي تقوم بها الشخصيات، بحيث يصعب الاستغناء عنها أو إسقاطها، بل يمثل الشعر الوظيفة الأكثر أهمية في نظر الراوي، والتي لم يرد الخبر إلا من أجلها، والتي يسعى الراوي للوصول إليها من أقصر الطرق عن طريق السرد الموجز السريع، ولا تسمح بساطة الخبر وقصره وقلة عدد بناه الوظيفية للشعر بتجاوز هذا الدور إلى دور آخر في إطار القصة، وهنا ينطبق على هذا النوع من الأخبار مقولة أن السرد فيه خادما للشعر، ويقوم السرد في هذه الحالة "بوظيفتين متكاملتين: أولاهما تبرير إيراد هذه الأشعار، وثانيتهما إيهام القارئ أو السامع بصحتها واستدراجه إلى تصديق الأخبار التي جاءت شاهدة عليها"[8] فالشعر هو الغاية التي تقصدها

الشخصية، أما السرد فتمهيد أو بيان أو تفسير له ويختص به الراوي غالبا، ومن أمثلة هذا النوع من الأخبار:

- **"اعتل الحسن بن وهب، فلم تعلم بُنات بذلك، وتأخرت عن عيادته، فكتب إليها:**

عليلٌ أنـتِ أعْلَلْتِـهْ ❖❖❖ فلَو أنّـــك علّلْته

بوعدٍ أن تزورِيـــه ❖❖❖ إذا ما مُمـكنٌ نلتِه

.... (102/23)

والخبر السابق يتضمن مقطوعة شعرية قوامها سبعة أبيات يذكرها الراوي كاملة دون حذف أو قطع، وهو ما يؤكد مركزية الشعر داخل الخبر وسيطرته عليه كدور أساسي من أدوار أو وظائف الشخصية، والتي لا تظهر في الخبر إلا لتنطق بهذا الشعر كرد فعل على عدم زيارة بنات (محبوبته) له في مرضه، ويلاحظ أيضا أن كلا من الشعر والسرد يمثل معادلا موضوعيا للآخر على مستوى المضمون، وإن اختلافا على مستوى الخطاب، فالشخصية تقوم بالتعبير عن انفعالاتها في لغة موسيقية منتظمة محملة بمشاعره بينما يقوم الراوي بنثر الشعر أو حل المنظوم بصورة موجزة سريعة تقوم على توالي وبلغة سردية مكثفة ومصفاة من مشاعر الشخصية القائلة وانفعالاتها الأفعال. وبعبارة جريماس يمكننا اعتبار الشعر في الخبر السابق من ملفوظات الحالة Statis Statement (يكون) في مقابل ملفوظات الفعل process Statement (يفعل أو يحدث) التي يمثلها السرد، حيث يقوم الأول بتعيين كينونة الشخصيات أو وصفها، بينما يرصد الثاني أفعالها. فالخبر ما هو إلا وحدة سردية تجسّد الحالة في مقابل وحدة سردية أخرى تابعة تجسد الحدث.

- **وفي خبر مروان بن الحكم وامرأة بني جعفر يروى ".....أن مروان بن الحكم مر ببادية بني جعفر فرأى قطيّة بنت بشر تنزع بدلو على أبل لها، وتقول:**

ليس بني فقر إلى التشكي ❖ جربة كحمر الأيك ❖ لا خدع فيها ولا فدكي، ثم تقول:

عَـامَــانِ تَـرْقيــقٌ وعــامٌ تمَّمَا ❖❖❖ لم يتَّرِكْ لحماً ولم يَترُك دما
ولم يَدَع في رأسِ عظمٍ ملدمــا ❖❖❖ إلا رَذَايَــا ورجــالا رُزَّمَــــا
فخطبه مروان فتزوجها، فولد له بشر بن مروان "(346/1)

والخبر السابق قوامه (سماع ←—— زواج)، وهو يشتمل على أكثر من فعل أو حدث، بيد أن الوظيفة النووية (وفقا لبارت) هي السماع الذي أفضى إلى الزواج لا الرؤية، حيث يمثل سماع الشعر نقطة فاصلة في بنية الخبر بدونها لا يكتمل الخبر في اتجاهه المقصود، بينما تتراجع أمامها الوظائف الأخرى، والتي لا تقوم إلا بملء الفضاء السردي أو ما يطلق عليه بارت الوسائط أو الوظائف التكميلية التابعة، ومشهد قُطيّة وهي تقف على البئر ورؤية مروان لها هو الوظيفة التابعة، فهي مجرد تمهيد لبؤرة الخبر المتمثلة في الفعل القولي والذي يمثل المحرك الأول لقلب مروان نحوها ويجعله يقدم على خطبتها، وهو ما لا يمكن الاستغناء عنه ؛ ومن ثم تتأكد نووية الفعل القولي لقطية الذي يتحقق من خلاله رد الفعل لمروان. وفي هذا الخبر يمثل الشعر ملفوظات حالة، في مقابل ملفوظات الفعل، وما جسّده الشعر من معاني وقعت في قلب مروان هو الذي دعاه إلى زواجها، فهو بؤرة الخبر وأكثر عناصرها تأثيرا لذا لم يتطرق الخبر إلى أوصاف قطيّة هذه لأنها غير ذي بال. وقس على ذلك عدد كبير من الأخبار البسيطة التي تقوم على بنية الفعل ورد الفعل.

وإذا انتقلنا إلى موقع الشعر ووظيفته السردية في الأخبار الأكثر تركيبا وسردية نجد الشعر يأخذ مواقع عدة من السرد منها:

- **الشعر مفصل سردي**
- **الشعر حافز سردي**
- **الشعر وحدة وصفية، أو تعليقية**

ومن الجائز أن يشتمل الخبر على شعر يؤدي دورا واحدا من تلك الأدوار، وربما اشتمل على أبيات شعرية تؤدي أكثر من دور داخل السرد. ومما يميز الشعر في هذا النوع من الأخبار أنه ليس بالضرورة أن يكون السرد تابعا له يستقي منه مادته على نحو مانجد في الأخبار البسيطة، بل تنتقل التبعية من الخبر أو السرد إلى الشعر الذي يصبح ألعوبة في يد رواة الأخبار يستخدمونه كما يشاءون ويحددون موقعه من السرد وفقا لمقتضيات الحكي لا غير، فهو وإن كان أسبق في الإنتاج يغدو تاليا في الاستخدام، وفي هذه الحالة يصير الشعر خادما للخبر، الذي "يستخدمه ويخضعه لفهم جديد، فيذبل المعنى الشعري ويحل الراوي محل الشاعر، ويوظف الشعر توظيفا جديدا"[9]، فالسرد في هذا النوع من الأخبار هو المسيطر والمتحكم في الشعر المذكور في ثناياه، واستبدل المجاز فيه بالحقيقة وتراجع صوت الشاعر المنشد أمام الراوي الذي يسرد. والأخبار الآتية توضح ذلك :-

- **" كان المطّلب بن عبد الله بن حنطب قاضيا على مكة، فشهد عنده أبو سعيد مولى فائد بشهادة ؛فقال له المطلب: ويحك ! ألست الذي يقول:**

لقد طفتُ سبعا قلت لما قضيتها ❖❖❖ ألا ليت هذا لا عليّ ولا ليا

لا قبلت لك شهادة أبدا. فقال له أبو سعيد : أنا والله الذي أقول:

كأنّ وجوه الحنطبيّين في الدّجَى ❖❖❖ قناديلُ تسقيها السَّليطَ الهياكلُ

فقال الحنطبيّ: إنك ما علمتك إلا دبابا حول البيت في الظلم، مدمنا للطواف به في الليل والنهار ؛ وقبل شهادته" (338/4)

والخبر السابق يرصد تحولا في موقف القاضي من أبي سعيد مولى فائد وشهادته، وهو موقف يحمل كثيرا من السخرية والاستهزاء من القاضي، كما يحمل إدانة واضحة له، ولتبدل موقفه بين لحظة وأخرى، والشعر هو محدث هذا التحول، فتذكر القاضي لبيت أبي سعيد الأول يجعله يرفض شهادته، بينما

ذكر أبي سعيد للبيت الثاني بما فيه من مدح للحنطبيين يجعله يغير موقفه ويقبل شهادته، فالشعر هو الفاعل في الموقفين والمؤثر في موقف الشخصيتين وتحوله من الضعف إلى القوة بالنسبة للشاعر ومن القوة إلى الضعف بالنسبة للقاضي .فالشعر يمثل حافز مقيدا أو وظيفة نووية أساسية Cardinal function لا يمكن استبعادها من الخبر دون تدمير تتابعه الزمني (الكرونولوجي). بل إن الشعر في الخبر السابق وغيرها من الأخبار المشابهة أكثر فاعلية من الشخصية الحاملة له إنشادا أو غناء.

وقس على ذلك في كثير من الأخبار تقوم على بنية التحول، حيث يقوم الشعر- مع احتلاله بؤرة السرد - بدور حافز سردي يسمح بفتح الأحداث وإغلاقها، ولكن لا ليسمح بحركة الأحداث في نفس اتجاه حركته السابقة ؛ وإنما يقوم بإحداث إنعكاس في سير هذه الحركة إلى اتجاه آخر مضاد غالبا ما يكون في صالح الشخصية التي تحمل هذا الشعر، فالشعر في هذه الأخبار نقطة فارقة بين موقفين مختلفين. ومن أمثلة ذلك خبر معبد والعبد الأسود **(49/1)** ومنها أخبار **(42/7)، (250/5)، (42/7)، (310/12)، (112/8)، (374/16)، (174/17)، (210/20)، .....** وغيرها كثير .

• وفي **خبر مخارق المغني وإبراهيم الموصلي مع يحيى البرمكي (178/5 : 184)** نجد تصاعدا في العطاء يوازي جودة الأصوات المغناه، فالشعر هو الممسك بالخيط التصاعدي للأحداث، فمخارق يتلقى صوتا من الموصلي ويطرق به باب الوزير يحيى بن خالد، ثم يعود إلى الموصلي بما فاز به من العطاء، وهكذا في الصوت الثاني الذي يتجه به للفضل بن يحيى البرمكي، وكانت المكافأة أكبر، وفي الصوت الثالث يذهب به إلى جعفر البرمكي، وكانت العطاء أكبر من المرتين السابقتين، فالصوت الشعرى المغنى في كل حلقة من حلقات الخبر يمثل فاصلا سرديا يقوم بالفصل بين الحلقات المختلفة للخبر، ولا

يلعب دورا في توسيع السرد، إنه فقط يسمح بانتقال الحركة من موقف إلى موقف آخر، ومن ثم فهو خاتمة يتم من خلالها إغلاق كل سلسلة من سلاسل الخبر الثلاث .

• وشبيه بالخبر السابق **خبر أبي إسحاق المخزومي والعجوز المغنية (125/24)**، وفيه تم تقطيع الشعر في سياق تصاعدي، يعلو وتعلو معه انفعالات الشخصية حتى تصل إلى الذروة .مع نهاية الخبر التي هي نهاية الغناء .

• وفي **خبر عمر بن أبي ربيعة مع العذري (169/11)** الذي قابله بعد انقطاع وسؤاله عن أسباب ذلك، يرد الشعر على لسان معظم شخصيات الخبر، فنجده :

- على لسان أخي العذري يصف فيها حالة أخيه بقول الشاعر:

لعمرك ما حبّي لأسماء تاركي ❖ أعيش ولا أقضى به فأموت

- على لسان عمر يعبر عن قلقه على العذري:

أرائحةٌ حجَّاجُ عُذرةَ وِجهةً ❖ ولمّا يرُحْ في القوم جَعدُ بنُ مهجَّعِ

ألا ليت شعري أيُّ شيءٍ أصابه ❖ فلي زَفَراتٌ هِجْنَ ما بين أضلُعي

- على لسان العذري يحكي لعمر ما به:

لئن كانت عُديّةُ ذاتَ لُبٍّ ❖ لقد علمتْ بأنَّ الحبَ داءُ

ألم تنظر إلى تغيير جسمي ❖ وأنّي لا يفارقني البكاء

وقوله: **ياربّ كلِّ غَدوة ورَوحةْ ❖ من مُحرمٍ يشكو الضّحَى ولَوْحَه**

أنت حسيبُ الخَلْق يومَ الدَّوحةْ

- على لسان الفتاة التي أحبها العذري وكانت متخفية في زي فارس :

إذا قبّل الإنسانُ آخَر يشتهي ❖ ثناياه لم يأثمْ وكان له أجْرًا

فإن زاد زاد الله في حَسَناته ❖ مثاقيلَ يمحو الله عنه بها الوِزرا

- أبيات في نهاية الخبر على لسان عمر والعذري، ومنها قول عمر بعد أن نجح في الجمع بين العذري ومن أحب:

كفيت أخي العذريَّ ما كان نابَه ❖ وإني لأعباء النوائب حَمّالُ

- أبيات أخرى جاءت على لسان العذري في جلسته مع الفارس وتعارفهما وما كان من اكتشافه لأمره .

وتتنوع أدورا الأبيات السابقة وفقا لموقعها من القصة ودور الشخصية المنشدة لها، فأخو العذري يصور حالة أخيه ووقوعه في الهوى ببيت من الشعر يمثل وحدة دلالية ربما لم تسهم في حركة السرد، ولكنها أحدثت نوعا من التشويق لدى عمر لمعرفة ما حدث لصاحبه، وأبيات عمر الأولى تجسد أيضا حالة تعبر فيها الشخصية عن قلقها، فهو أقرب للوقفة الوصفية، كذلك أبيات العذري التي يصف بها حالته ووقوعه في الهوى ،وهي تمثل في نفس الوقت وحدة وصفية يقف عندها السرد وتتابع الأحداث ولكن لصالح التعبير عن دخيلة الشخصية ومشاعرها، أما قوله "يارب كل غدوة وروحة ....."، فيمثل حافزا يعمل على استمرار السرد والتوسع في الخبر، وإشارته ليوم الدوحة في قوله تثير تساؤل عمر عن قصة ذلك اليوم وما حدث فيه فيحكي العذري قصته مع الفتاة التي وقع في محبتها، أما الأبيات المبثوثة في خبر العذري والفارس فيستعين كل منهما بأبيات لكل من امرىء القيس وأبي ذؤيب وغيرهما ليرصدا حالات مختلفة في لقائهما، فإمعانا في التخفي وتأكيد فروسيته ورجولته يكر الفتى منشدا قول امرئ القيس :-

"نطعنُهُم سُلكَى[1] ومخلوجةً[2] ❖❖ كَرَّكَ لَأْمَيْنِ[3] على نابلِ[4] "

(الطعنة[1] المستقيمة، [2] الطعنة المعوجة، [3] السهم، [4] صاحب النبل)

أما قوله "**إذا قبل الإنسان آخر يشتهي** ....." فجاء عقب شرابه مما كان يحمله العذري، كتمهيد للكشف عن حقيقته كأنثى، وما بين هذا القول

والقول السابق بونا كبيرا في الدلالة، فالأول يجسد صورة الفارس المغوار بصورة بيّنة تؤكدها كلمات البيت، أما القول الثاني ففيه من الرقة وربما كان ذلك بعد أن عمل الشراب عمله فجعله يصرح بطبيعته الأنثوية ويكشف عن لواعجه وأشواقه الحقيقية الكامنة، لذا كان اكتشاف العذري لشخصيته عقب هذا القول مباشرة، وما بين القولين يأتي قول ثالث على لسان العذري نفسه بعد أن استمع ساعة لحديثها حيث يستشهد بقول أبي ذؤيب الهذلي:

وإنَّ حديثا منكِ لو تبذُلينَه ❖❖❖ جنى النحل في عُوذٍ مطَافل

ويمثل هذا الاستشهاد خطوة جديدة في سبيل تعرّف العذري على شخصية الفارس وليس من قبيل المصادفة أن يرد هذا البيت في وصفه لمنطقها وحديثها – باستخدام ضمير المخاطبة المؤنثة - الذي وصفه وصفا صريحا في سرده بعد ذلك أنه يشبه حديث النساء، فهو يمثل قرينة كاشفة تؤشر من بعيد على طبيعة الفارس، فنحن إذن أما درجات شعرية متصاعدة نصل بها لحقيقة المرأة الفارس. أما أبيات العذري وعمر في نهاية الخبر فتمثل خاتمة يتم بها إغلاق الخبر تستريح بها الشخصيات، وتعبر عن رضاها بما حققته من نتائج.

• وفي **خبر معبد مع الشاب المدني (116/14)** تقوم الأبيات المنثورة في ثنايا الخبر بعدة أدوار فاعلة، وموجز هذا الخبر أن معبد اليقطيني المغني نزل به شاب من المدينة عليه آثار السقم ظاهرة، ووضع بين يديه ثلثمائة دينار مقابل أن يسمع منه بيتين من الشعر ويصنع فيهما لحنا، وأنشد البيتين قائلا :

واللّهِ يا طريفُ الجاني على بدني ❖❖❖ لتطفئنّ بدمعي لوعةَ الحَـزَن

أولأبوحن حتّى يحجبوا سكني ❖❖❖ فلا أراه ولو أُدرجت في كفني

ثم أغمي عليه حتى ظنه قد مات، فلما أفاق واصل تضرّعه لمعبد الذي وافق على صنع اللحن بشروط ثلاث هي:

- **أن يُطعَم الشابُ من طعامه.**

- **أن يشرب قدحا من النبيذ يشد قلبه.**
- **أن يحكي له قصته.**

فوافق الفتي وطعم وشرب وقص عليه قصته مع فتاة رآها بالعقيق تتنزه، وما كان من تعلقه بها وسعيه بمساعدة ظئرى (امرأة عطوف) أتاحت له فرصة رؤيتها مرة أخرى، فلما اقتربا على خشية من الرقباء، قال الفتى لإخوانه:

رمتني بسهمٍ أقصدَ القلبَ وانثنتْ ❖❖❖ وقد غادرت جُرحا به ونُدُوبا

فردت الفتاة ببيت تلته لصواحباتها على مسمع من الفتى ؛ قائلة: أحسن والله القائل، وأحسن من أجابه حيث يقول:

بنا مثلُ ما تشكو، فصبراً لعلّنا ❖❖❖ نرى فَرَجًا يشفي السقامَ قريبا

ثم أتاحت المرأة الوسيط أن تجمع بينهما فتعارفا وتكررت بينهما اللقاءات حتى شاع حديثهما، فحجبها أبوها وشدد عليها، ورفض الشابَ عندما جاءه خاطبا وأيأسه منها، فتأثر معبد لما سمع من الفتى وغدا إلى جعفر البرمكي فغناه الصوت فطرب لسماعه طربا شديدا وعرف أن لصاحبه حديثا فحدثه معبد به، فأمر بإحضار الفتى، وأقسم أن يزوجه إياها، فبات الفتى ليلة مع معبد وجعفر الذي ذهب إلى الرشيد فحدثه الحديث فأعجبه، وأمر بإحضار معبد والفتى وسمع الغناء وأمر من وقته عامله الحجاز بإشخاص الرجل وابنته وجميع أهله وخطب إليه الجارية للفتى فأجابه الرجل وزوجه إياها، وتكفّل الرشيد بجهازها، وأصبح المدني من جملة ندماء جعفر .

وإذا نظرنا لدور الشعر في الأبيات نلاحظ الآتي:

1- يمثل البيتان المغنى بهما حافزا سرديا يقوم بافتتاح السرد وتوسيعه، فمضمون البيتين وما يحمله الفتى من ضنى ولوعة جعلت معبدا على معرفة بقصته وقصة البيتين، وهو الأمر الذي تكرر مع جعفر، الذي عرف من البيتين

أن لصاحبهما قصة فطلب أن يسمعها، والأمر نفسه حدث مع الرشيد .فالبيتان إنشادا وغناء يمثلان حافزا يسمح باستمرار السرد وامتداه.

2- تتضح فاعلية البيتين على مستوى القصة من قدرتهما على الإنجاز وتحقيق مآرب الشخصيات، ففاز كلا من المنشد والملحن بعطاء الرشيد وجعفر، ومن ثم يمكننا اعتبار الصوت هو البطل الحقيقي أو أحد أبطال الخبر بما أنه امتلك هذه القدرة على الفعل والإنجاز .

3- يمثل بيتا الشعر اللذان عرّض بهما كل محب بمن أحب سيما نمطيا بين العاشقين، فالتعبير عن عاطفة عالية كالحب يحتاج للغة عالية كالشعر .

• وفي **خبر لأبراهيم الموصلي (223/5)** يسمع امرأة تبكي زوجها قائلة:

أعمـــــرو عَــلامَ تجنبتَنِي ❖❖❖ أخـذتَ فؤادِي وعذّبْتِنِي

فلو كنتَ يا عمرو أخبرتَني ❖❖❖ أخذتُ حِذاري فما نلْتَني

ويمثل البيتان في الخبر السابق حافزا يتم من خلاله استمرار السرد، حيث يسعى الموصلي بعد إعجابه بصوتها لمعرفة قصتها، ويعرف أن زوجها هذا الذي تبكيه في جدة، فيسير إليه ويأمر مناديا بالنداء عليه فيجده ويعيده- وهو يتميز بجمال الصوت أيضا - إلى زوجته، ويكفيه مؤنة عشرة أعوام كاملة حتى لا يفارق أهله مرة أخرى، فغناء المرأة في مطلع الخبر هو الأساس في انفتاح السرد وتواصله.

وأخبار الأغاني تغص بكثير من الأبيات التي تمثل وقفة وصفية أوتعليقية داخل السرد، وفي هذه الحالة لا يقوم الشعر بدور مؤثر على مستوى الأحداث، وإنما يمثل وحدة دلالية تتعلق بالشخصية ونفسيتها وانفعلاتها، فهي تمارس دورا فاعلا في التشخيص لا في سير الأحداث، في أخبار أخرى قد يأتي الشعر مكملا للحوار بين أشخاص الخبر، كما قد يقوم بوظيفة أخرى خاصة بمنهج الراوي الخارجي (أبي الفرج)، ولهذا الدور حديث آخر في الباب الثاني .

وخلاصة الأمر أن حضور الشعر في أخبار الأغاني كان أمر طبيعيا، لأن الشعراء والمغنين هم محور تلك الأخبار، لذا قام - في كثير من الأحيان- بدور فاعل في الأحداث، هذا الدور يتراوح بين كونه أصلا للخبر ومنه يتولد السرد، أو أنه ذو وظيفة رئيسة من وظائفه، كأن يكون فعلا أو رد فعل، أو أنه مفصلا سرديا في أخبار التحول يقوم بعكس اتجاه الأحداث وتحريكها في اتجاه آخر، وفي أخبار أخرى يقوم الشعر بدور الحافز السردي الذي يقوم بفتح الأحداث وغلقها.

لكن فاعلية الشعر تتراجع في أخبار كثيرة أخرى فيكون مقحما على السرد ولا يقوم بأي دور فني واضح، بل قد يعطل السرد دون مبرر فني، وتكون غاية الراوي منه مجرد الاستشهاد والتزيين "فهو دليل يؤكد وقوع الأحداث وواقعيةالشخصيات .....(و) أكثرها موضوع متهافت صنع استجابة لمقتضيات السرد ولأفق انتظار القراء والسامعين"[10]، وفي هذه الحالة نرى خللا اضحا في العلاقة بين الشعر والخبر، وانفصاما تاما بينهما في الدلالة ونكتفي للتدليل على ذلك بذكر المثال التالي:

- **قال الخليل بن سعيد": مررت بسوق الطير، فإذا الناس قد اجتمعوا يركب بعضهم بعضا،فاطّلعت فإذا أبو السائب المخزومي قائم على غراب يباع وقد أخذ بطرف ردائه وهو يقول: يقول قيس بن ذريح :**

ألا يا غرابَ البينِ قد طرتَ بالذي ❖❖❖ أحاذِرُ من لُبْنَى فهل أنت واقعُ؟

لمَ لمْ تقع ! ويضربه بردائه والغراب يصيح . قال: فقال قائل له: أصلحك الله يا أبا السائب ! ليس هذا ذاك الغراب. فقال: قد علمت، ولكن آخذ البريء حتى يقع الجريء"(216/9) .

فالشعر في الخبر السابق مع فاعليته في شخصية أبي السائب لا يتناسب مع أحداث الخبر، بل يتخذ وسيلة للسخرية والعبث عن طريق تفسيره تفسيرا ظاهريا يخرجه من لغة المجاز إلى لغة الواقع.

من العرض السابق يتبين لنا أن الشعر موقعا مركزيا في الأخبار، حيث تتجاوز كثير من الأشعار وظيفة الشاهد يوتى به لدعم الفكرة الواردة نثرا إلى تأدية وظائف أخرى تنشأ بموجبها علاقات نصيّة وظواهر فنيّة جديدة هي نتاج التفاعل بين أسلوبين في الكتابة تأثرا وتأثيرا[11] لكن موقعه من القص و فاعليته تتراوح بين كونه مفصلا سردي أو حافزا لتوسيع السرد، أو وحدة وصفية، أو تعليقية، وأحيانا يتراجع دوره بصورة تجعل منه معطلا للسرد ومقحما بصورة غير مبررة فنيا .

الهوامش :

* سنعتمد على طبعة دار الكتب المصرية والتي صدرت في أربعة وعشرين جزءا عن الهيئة العامة للكتاب – مكتبة الأسرة –القاهرة 2001 م.

1- عيسى مرسي، وآخرون: فن الخبر القصصي دراسة تأصيلية في بدايات الدراما العربية، ط1، القاهرة 2002م– ص85.

2- مصطفى ناصف: محاورات مع النثر العربي – عالم المعرفة – الكويت – العدد 218، 1997م– ص 296.

3- شعيب حليفي: تحول المتعة "من البناء الشفوي إلى النسق المكتوب) – فصول – العدد الرابع – المجلد الرابع عشر – شتاء 1996– ص188، وما بعدها

4- عبد الحميد إبراهيم: قصص الحب العربية – قصص الحب العربية "أغراضها وتطورها "، دار المعارف ط 2 – القاهرة 1987 م– ص 36.

5- فاروق خورشيد في كتابيه:

أ- الرواية العربية عصر التجميع – مرجع سابق، ص 180.

ب- الجذور الشعبية للمسرح العربي- الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 2006، ص141 وما بعدها.

6- محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي "دراسة في السردية العربية ط دار الغرب الإسلامي – بيروت 1998م- ص383.

7- محمد القاضي: السابق – ص541 وما بعدها.

8- محمد القاضي: السابق – ص 694.

9- محمد القاضي: السابق – ص546.

10- محمد القاضي: السابق – ص575.

11- عبد الله بهلول: في بلاغة الخطاب الأدبي، بحث في سياسة القول في نصوص من الأدب العربي القديم، التسفير الفني صفاقس، تونس 2007، ص70.